Gleams of Islamic Civilization
Vol.1, No.1, September 2024, 83-112
(DOI) 10.22034/SIC.2024.401337.1059

The Days of the Arabs: From the Pre-Islamic Era to the Islamic Era

Majedah Almortaze[1]
Seyed Mohammad Hosseini[2]

(Received:2023 June 08; Accepted: 2023 September 28)

Abstract

This research seeks to shed light on the "days of the Arabs" during the pre-Islamic (*Jāhilī* or ignorance) era and their extension into the Islamic period. It aims to examine the events of the pre-Islamic era, particularly the conflicts and various occurrences that have shaped Islamic history. The study attempts to answer major questions: What were the reasons for these events? Why did tribal conflicts, marked by tragedies, calamities, bloodshed, and vengeance, persist for so many years? Can these conflicts be attributed to power, water, pasture, revenge, or public good? Did the extension of these events into the Islamic era retain the same meaning and content as in pre-Islamic times? The answers are as follows: When negative values, nationalistic and ethnic sentiments, and inherent ignorance prevailed, those days were characterized by senseless, unjust, and absurd conflicts. However, with the advent of the Islamic call, along with its divine values and Quranic teachings, these days transformed into a form of human defensive action against injustice, tyranny, polytheism, and hypocrisy. Society began to build a divine structure unparalleled in the world. To understand the transition from what unfolded in the pre-Islamic era to what occurred in the Islamic period, we adopt a structured sequential approach. This approach helps comprehend the various events of the pre-Islamic era and how the seemingly absurd pre-Islamic days were transformed into days that defended truth, the divine religion, and moral values. We employed a historical-analytical-descriptive approach to unveil the truth behind the pre-Islamic conflicts, which Islam later repudiated, transforming days of hostile attacks into days of divine defense, as manifested in Islamic wars and conquests.

Keywords: Arab days, Arabian Peninsula, wars, events, pre-Islamic era, *Jāhiliyya* (Ignorance), Arab wars.

1. PhD Student, Islamic History, Faculty of History, University of Religions and Denominations, Qom, Iran. (Corresponding Author) Email: kawtharalrasoul110@gmail.com
2. Department of Islamic History, Faculty of History, University of Religions and Denominations, Qom, Iran. Email: sm.hosseini2@urd.ac.ir

أضواء الحضارة الإسلامية
المجلد ١، العدد ١، ربيع و صيف ١٤٠٣هـ. ش/ ٢٠٢٤ م، ص ٨٤ - ١١٢

أيام العرب من العصر الجاهلي إلى العصر الإسلامي

ماجدة آل مرتضى[١]، سيدمحمد حسيني[٢]

[تاريخ الوصول: ١٤٠٢/٠٣/١٨هـ.ش؛ تاريخ القبول: ١٤٠٢/٠٧/٠٦هـ.ش]

الملخص

يسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على أيام العرب في العصر الجاهلي، وامتدادها إلى أيام العصر الإسلامي، ويهدف إلى قراءة ماكان يجري في العصر الجاهلي من أحداث، في مقدمتها أيامهم وصراعاتهم ووقائعهم المتنوعة التي ملأت التاريخ الإسلامي، وكذلك يحاول الإجابة عن أسئلة رئيسة، هي: ماكان سبب تلك الأيام؟ ولماذا استمرت لسنوات عديدة تلك الصراعات القبلية التي تضمنت الكثير من المآسي والويلات وهدر الدماء وحالات الثأر والقتال؟ فهل يستسيغ العقل أن تكون تلك الصراعات على سلطة أو ماء أو مرعى أو ثأر أو خيرٍ عام؟ وهل كان امتداد الأيام في الإسلام بنفس المعنى والمضمون الجاهلي أم لا؟ والجواب عليها يكون كالتالي. فعندما تسود القيم السيئة والنعرات القومية والعرقية والجهل الملازم، نجد تلك الأيام سيئة عبثية ظالمة. وأما حين بدأت الدعوة الإسلامية بقيمها الإلهية وتعاليمها القرآنية، فأصبحت الأيام نوعا من حالة إنسانية دفاعية ضد الظلم والاستبداد والشرك والنفاق، وبَنَت المجتمع بناءً إلهياً منقطع النظير في العالم. تأسيسا على ذلك، اخترنا المنهج التسلسلي المنظّم، لفهم ماكان يجري في ذلك العصر الجاهلي من مختلف الأحداث، وكيفية تحول تلك الأيام الجاهلية العبثية إلى أيام كريمة تدافع عن الحق والدين الإلهي والقيم الأخلاقية، واتبعنا منهجاً تاريخياً. تحليلياً. وصفياً، يكشف الستار عن واقع الصراعات الجاهلية التي أنكرها الإسلام فيما بعد، وحوّل الأيام الهجومية العدائية إلى أيام دفاعية إلهية تمظهرت في المغازي والفتوحات.

الكلمات المفتاحية: أيام العرب، الجزيرة العربية، الغزوات، الوقائع، العصر الجاهلي، حروب العرب

---

١. طالبة الدكتوراه في قسم تاريخ الإسلام، جامعة الأديان والمذاهب، قم، إيران. (الكاتبة المسؤولة) kawtharalrasoul110@gmail.com
٢. أستاذ مساعد في قسم التاريخ، جامعة الأديان والمذاهب، قم، إيران. sm.hosseini2@urd.ac.ir

١. المقدمة

بين العصرين الجاهلي والإسلامي بون شاسع من جميع الجهات الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية .... فبعد أن شاعت في العصر الجاهلي الوثنية المضطربة الدينية، والصراعات القبلية العبثية، واللامركزية في الحكم، والخلافات الثقافية الواسعة، جاء العصر الإسلامي كثورة على كل تلك الأوضاع والحالات السيئة، ثورة إلهية إنسانية عادلة استمد أساسها من الله والقرآن والنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله).

مما لا يخامرنا الشك أن البيئات والأوضاع المختلفة تفرض حالات وسلوكيات اجتماعية مختلفة. فمن السلوكيات الجاهلية الاجتماعية ـ كما سنرى لاحقاً ـ هي ظاهرة أيام العرب وحروبهم التي كانت بين القبائل العربية نفسها، أي بين العدنانيين والقحطانيين، أو بين العدنانيين أنفسهم، أو بين القحطانيين أنفسهم، أو بين العرب وما جاورهم من الأقوام الأخرى، وخاصة بين العرب والفرس والروم.

ولم تكن أيام العرب مجرّد مادة عسكرية تتحدث عن وقائع عسكرية ميدانية، وإنّما هي صورة واضحة ومرآة صافية لأوضاع العرب وعاداتهم وطرق حياتهم التي دارت بينهم، وشأنهم في الحرب والسلم والاجتماع والفرقة والفداء والأسر والتشتت والاستقرار وما شاكل ذلك. وهي، في الوقت نفسه، مرآة صادقة عن طبائعهم وأوضاعهم، فقد كشفت عن أسلوبهم وشيمهم كالدفاع عن عوائلهم ونسائهم وأطفالهم، والوفاء بالعهد وحماية الجار والصبر على القتال، وبالتالي، فأيام العرب هي حياة العرب في العصر الجاهلي، تكشف عن واقعهم وحياتهم العامة، ومصدر مهم من مصادر التاريخ الجاهلي قبل الإسلام خاصة.

والحقيقة أن أيام العرب امتدت إلى بداية عصر الإسلام، وإن اختلف أسلوبها وقيمها ـ كما سنرى ـ حتى أن البعض جعلها ضمن أيام العرب في الجاهلية. وهنا، يمكن

تقسيمها إلى أيام العرب قبل الإسلام، وأيام العرب بعد الإسلام، وإن سمّت أغلب المصادر أيام العرب في الفترة الإسلامية بالمغازي أو المعارك، نسبة إلى مغازي المسلمين ومعاركهم والوقائع التي نشبت بينهم وبين أعدائهم. وأما من لم يتأثر بالإسلام وبقي على جاهليته، فذلك شأنٌ آخر.

مهما يكن من أمر، فنسعى في هذه الوجيزة إلى دراسة مقارنة بين أيام العرب قبل الإسلام وأيامهم في الإسلام، استنادا إلى أهم المصادر التاريخية وأقدمها التي تتوافر لدينا.

وتهدف هذه الورقة البحثية المتواضعة إلى قراءة ما كان يجري في العصر الجاهلي من أحداث، في مقدمتها أيامهم وصراعاتهم ووقائعهم المتنوعة التي ملأت التاريخ الإسلامي، ومدى امتدادها في الإسلام، فهل بقيت على نفس التسمية أم تغيرت على إثر تغيير ماهية الوقائع.

١-١. خلفية البحث

هناك دراسات وبحوث تناولت موضوع أيام العرب بالدرس والتحليل، فمن أهمها ما يلي:

كتاب أيام العرب في الجاهلية والإسلام، لإبراهيم شمس الدين؛ وكتاب أيام العرب في الجاهلية، لعلي البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم؛ وكتاب المفصل في تاريخ العربي قبل الإسلام، لجواد علي.

أما المقالات المشابهة لهذا البحث، فهي: أيام العرب في الجاهلية: قيمتها التاريخية، أثرها عند الجاهليين والإسلاميين، نماذج منها، لمنذر الجبوري؛ وكذلك مقالة يوم الرزم آخر أيام العرب، لمحمد بن مهاوش الوادعي؛ وأيام العرب: الأحلاف في الجاهلية، لإبراهيم عوض.

وأما المقالات في اللغة الفارسية، فهي: تأثير روايت أيام العرب بر مغازى و فتوح نگارى (= أثر رواية أيام العرب على المغازي وكتابة الفتوح)، لأصغر قائدان؛ وجنگ در نزد عرب پيش از اسلام (= الحرب لدى العرب قبل الإسلام)، لسجاد دادفر.

١-٢. مصطلحات البحث

تُطلق لفظة «أيام العرب» على الوقائع الحربية التي دارت بين القبائل العربية، أو بين القبائل العربية وما جاورها من الدول. فجلّ أيام العرب كانت لسيادة العصبية القبلية في الجاهلية وعدم وجود دولة توحّد قبائل العرب. فكل قبيلة كانت وحدة مستقلة، وكان التنافس في الجاهلية غالباً على موارد المياه ومنابت الكلأ وغيرهما.

٢. مصادر دراسة أيام العرب

أيام العرب مادة تاريخية شهيرة. ولإثبات وجودها، لا بد أن نعرف من أين يمكن للباحث أن يستقي المعلومات من هذه الظاهرة العربية. والحقيقة أن أيام العرب أخبار تاريخية، تقع ضمن دراسة التاريخ قبل الإسلام وبداية تاريخ الإسلام. والحقيقة أننا يجب أن نستقي معلومات تلك الأيام من رجالها الذين عاشوا في زمنها؛ ولكن ذلك أمر عسير للغاية؛ ومرجع ذلك أنه لم تكن الكتابة شائعة في الجزيرة العربية؛ فلذلك لا بد أن نلتمس ذلك مما بقي من آثارها المادية، مما توافر من الأحجار أو شواهد القبور أو الجدران التي تكون نادرة أو معدومة أحيانا؛ من ثم فلا مندوحة أن نأخذ ذلك مما ورد في القرآن الكريم من معلومات أو إشارات أو تلميحات، فهو أصح مصدر لدى الباحث يمكن الاعتماد عليه. يقول طه حسين في ذلك: «وأدرسها في نص لا سبيل إلى الشك في صحته، أدرسها في القرآن، فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي» (١٩٢٦م، ص ١٦).

ولكن في القرآن إجمال واختصار؛ بذلك يمكن انتزاع التفصيل من عصر التدوين على علاته ...؛ لكن عصر التدوين لا يخلو من إشكال؛ إذ لا يمكن أن يقدّم لنا صورة واضحة وصحيحة من الأيام. فالبُعد في الزمن وأهواء القبائل والأفراد والأغراض السياسية والقبلية والحب والكره من أهم المعوقات التي أدت إلى أن لا تصل إلينا معلومات صحيحة ودقيقة. وإذا كان الشك في ما ورد من أيام العرب في العصر الجاهلي قائماً، فإننا يمكن أن نطمئن

إلى حد ما على ما أورده المؤرخون والرواة الأوائل عن أيام العرب أو غزوات الرسول الأكرم (ﷺ). فقد سجل الرواة الأوائل ذلك في مدوناتهم. فيمكن أن نذكر منهم الذين كانوا يعيشون في القرنين الأول والثاني للهجرة. فقد كتب هؤلاء في السيرة والمغازي، كعروة بن الزبير المتوفى ٩٣هـ، وأبان بن عثمان المتوفى ١٠٥هـ، وشرحبيل بن سعد المتوفى ١٢٣هـ، والزهري المتوفى ١٢٤هـ، وغيرهم من أوائل المؤرخين[١]. ولكن الكتاب الأهم هو كتاب المغازي أو مغازي الواقدي لمحمد بن عمر الواقدي المتوفى ٢٠٧هـ، وهو تصنيف خاص جمع فيه قصص غزوات[٢] الرسول وسراياه[٣].

إذن، فمن الصعوبة أن نقطع بما ورد من أخبار أيام العرب، وخاصة في العصر الجاهلي في المدونات المتأخرة؛ ولكن في النتيجة يضطر الباحث إلى المدونات التي كتبت في القرون الأولى الإسلامية وما بعدها، إضافة إلى ما ورد من معلومات وتلميحات وإشارات في القرآن الكريم. وقصارى القول، فإنه لدينا معلومات شحيحة عن أيام العرب، حيث يُلاحظ نوع من الخلل في الصحة والقيمة والموثوقية لها. من ثم ليس لدينا في هذه الحالة، سوى أن نعتمد على ما يتوافر بين أيدينا من معلومات مستقاة من القرآن الكريم والمدونات التاريخية والأدبية وكتب الحديث والتفسير واللغة وما إلى ذلك من كتب التراث الإسلامي.

هنا، يمكن أن نذكر بعض هذه المؤلفات، فمثلاً كتاب أيام العرب لأبي الفرج الاصفهاني، فذكر فيه ١٧٠٠ يوم[٤]، وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، وكتاب تاريخ الطبري لابن جرير الطبري، وكتاب الكامل لابن الأثير، ومروج الذهب للمسعودي، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، وجمهرة أشعار العرب للقرشي، وبلوغ الأدب في أحوال العرب للآلوسي، وخزانة الأدب للبغدادي، ومؤلفات متنوعة أخرى لا مجال لذكرها.

---

١. راجع تفصيل ذلك في كتاب نشأة علم التاريخ عند العرب، لعبد العزيز الدوري.

٢. الغزوة: هي القطع العسكرية التي كان يقودها الرسول الأكرم (ﷺ).

٣. السرية: هي القطعة العسكرية التي يعين الرسول الأكرم أحد المسلمين لقيادتها نيابة عنه.

٤. ذكر ابن خلكان في ترجمة صاحب كتاب الأغاني، أنّ أيام العرب من مؤلفاته (١٩٧٢م، ج ٣، ص ٣٠٨).

٣. نبذة تعريفية عن أيام العرب

في الحقيقة، أن أيام العرب إجمال حياة العرب وما رافقها من أحداث ووقائع أو هو سجل تاريخي لما كان عليه العرب في العصر الجاهلي وامتداده إلى عصر صدر الإسلام، وما أضاف إليه المؤرخون من زيادات ونقصان.

وأساس أيام العرب مصطلح عربي، وإن انتقل معناه إلى بلدان أخرى. ويمكن التماس المراد بأيام العرب من خلال كتب اللغة والأدب والتاريخ. فأصل الأيام هو اليوم، وهو كما يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي: «اليوم مقداره من طلوع الشمس إلى غروبها» (١٩٨٨م، ج ٨، ص ٤٣٣)، و«تقول العرب لليوم الشديد، يوم ذو أيام ويوم ذو أياييم لطول شرّه على أهله» (المصدر نفسه). وفي لسان العرب عن ابن السكيت: «العرب تقول الأيام في معنى الوقائع، يقال: هو عالم بأيام العرب يريد وقائعها وأنشد:

وَقائعُ في مُضَرٍ تِسْعَةٌ وَفي وائِلٍ كانَتِ العاشِرَة

فقال تسعة، وكان ينبغي أن يقول: تسع؛ لأن الوقيعة أنثى؛ ولكنه ذهب إلى الأيام؛ وقال شمر: جاءت الأيام بمعنى الوقائع والنعم، وقال: إنما خصّوا الأيام دون ذكر الليالي في الوقائع؛ لأن حروبهم كانت نهارا» (١٤١٤هـ، ج ١٢، ص ٦٥١).

وفي القرآن الكريم، أن «أيام الله» تعني نعمهُ: ﴿لا يَرْجونَ أَيّامَ الله﴾ (الجاثية ٤٥: ١٤). وقد يُراد بالأيام العقوبات والنقم، وبه فسر بعض قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ (إبراهيم ١٤: ٥).

ومن أهم أيام العرب هي واقعة حُنين باسم يوم حنين، والتي ذكرها القرآن الكريم بشكلٍ صريح، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ الله فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ (التوبة ٩: ٢٥)، ويذكر الطبرسي: «وحُنين وادٍ بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين» (١٤١٢هـ، ج ٢، ص ٤٦). ومن المجاز، يقول الزمخشري: «ذُكر في أيام العرب كذا، أي في وقائعها، [وذكرهم بأيام الله] بدمادمه على الكفرة» (١٩٧٩م، ص ٥١٤). ويقول صاحب كتاب العقد الفريد: «ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في أيام العرب ووقائعهم، فإنها مآثر الجاهلية

ومكارم الأخلاق السنية» (١٩٨٣م، ج ٥، ص ١٣٢). وفي كشف الظنون، يذكر حاجي خليفة تحت عنوان علم أيام العرب:

> وهو علم يبحث فيه عن الوقائع العظيمة والأهوال الشديدة بين قبائل العرب، ويطلق الأيام، فيُراد هذه على طريق ذكر المحل وإرادة الحال والعلم المذكور ينبغي أن يجعل فرعاً من فروع التواريخ، وإن لم يذكره أبو الخير مع أنه ذكر ما هو ليس بمثابة ذلك. وصنّف فيه أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري المتوفى سنة عشر ومائتين كبيراً وصغيراً ذكر في الكبير ألفاً ومائتي يوم، وفي الصغير خمسة وسبعين يوماً، وأبو الفرج علي بن حسين الأصبهاني سنة ست وخمسين وثلثمائة زاد عليه وجعل ألفاً وسبعمائة يوم (١٩٦٧م، ج ١، ص ٢٠٤).

ولأبي الفرج الأصفهاني كتاب أيام العرب ذكر فيه ١٧٠٠ يوم، يقول فيه: «وكان عظام أيام العرب ثلاثة: يوم كلاب ربيعة، ويوم جبلة، ويوم ذي قار» (١٤١٤هـ، ج ١١، ص ١٣١). يقول جواد علي في هذا الصدد: «والمناوشات التي وقعت بين القبائل بالأيام أو أيام العرب» (١٩٦٠م، ج ٥، ص ٣٤١)، يتابع أن مادة هذه الأيام عربية خالصة يتخللها شعر قبل بالمناسبة في تلك الأيام في الفخر والحماسة وفي هجاء الخصم والانتقاص منه (١٩٦٠م، ج ٥، ص ٣٤١).

٤. ظاهرة أيام العرب: بواعثها وأسبابها

لم تكن أيام العرب التي قامت بين القبائل العربية أو مع غيرهم، دون دوافع وبواعث وأسباب أدّت إلى قيامها، وإنّما هناك أسباب ومشاكل وظروف سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو غير ذلك. فلا بد أن تكون الظروف الصعبة من البيئة الصحراوية، وكذلك قلة المياه والكلأ والفقر الاقتصادي، قد طبعت أبناء ذلك العصر بطابع إنساني صعب دفعت بهم إلى تلك الأيام، أي أيام العرب.

وإذا كان الكثير من أبناء الجزيرة العربية بدواً رحلاً يعيشون على ما توفره البيئة من خيرات محدودة قليلة، فلا بد أن يكون الخلاف والنزاع على هذه الخيرات القليلة أمراً متوقعاً. لقد خلقت هذه الصعوبات البيئية أناساً صعبين شديدين يختلفون ويتأثرون بأتفه الأسباب. وهكذا كان عرب الجزيرة العربية أو بدوها الساكنون في صحاريها وحضرها، أشداء متعصبين يتأثرون بأتفه الأسباب. فيقول جرجي زيدان: «يتخاصمون على ما تقتضيه طبيعة البداوة، ويندر أن يجتمعوا تحت راية واحدة» (١٩٨٢م، ج ١٠، ص ٣٠٥).

فإن الطابع البدوي العربي هو المكون الأساس للعصر الجاهلي. وهذا الطابع ذو طبيعة صعبة أصلاً شديدة متمسكة بعادات خاصة بها تعرف بالعصبية القبلية المعروفة في تاريخ العرب في العصر الجاهلي، وهي تعني ضمن ما تعني القرابة والانتساب داخل الأسرة الواحدة أو العشيرة، وهي في مجملها عنصرية تؤمن برابطة الدم، مقاتلة من الدرجة الأولى. فيقول شوقي ضيف في هذا الصدد: «كانت حياتهم حربية تقوم على سفك الدماء، حتى لأصبح سُنة من سننهم، فهم دائماً قاتلون ومقتولون لا يفزعون إلا إلى دم» (١٩٦٠م، ج ١، ص ٦٢). فهذا السلوك أدّى بهم أن تكثر أيامهم أو حروبهم، بين قبائلهم نفسها وبين آخرين من خارج قبائلهم.

فكانت لهذه الموالاة التامة والكاملة للقبيلة أو العشيرة أو العائلة ومناصرتها ظالمة أو مظلومة والثأر لثأرها والحرب لحربها والوقوف معها في أي تصرف من تصرفاتها، تأثير في حياتها الاجتماعية، وقد خلقت منهم رجالاً أشداء في الحروب. إن مثل هذا الأسلوب والطبيعة والأخلاق لا بد أن يؤدي إلى مشاكل ونزاعات وصراعات ووقائع مختلفة بمختلف الأسباب. فإن هذا الأسلوب وهذا الخلق سار بقبائل العرب البدوية خاصة، على طريق الحرب والغزو والاعتداء والغارات مما تعرف بأيام العرب، وهي عادة على نوعين: واحدة سبقتها نزاعات ومشاحنات محدودة؛ والنوع الثاني سرية عرفت بالغارات، حيث يفاجأ بها القوم ويؤخذون على حين غرة (حمودة، ٢٠٠٦م، ص ١٧٨).

ولا شك أن الصلات القبلية والسلوك الخاص بينهم والطبائع الجافة قامت أساساً على العداء والحروب المتتالية أو على المحالفة والنصرة. فكانت بيئتهم الطبيعية والاجتماعية والسياسية محفزة لهذه الحروب، فهم كانوا يتنازعون ويتصارعون على المرعى يسيمون فيه أنعامهم و إبلهم، وعلى المنهل يطفئون به ظمأهم في بلاد شحيحة بالكلأ ضنينة بالماء لا ملكية فيها لأحد. وكثيراً ما كانت الحرب تبدأ بنزاع بين الرعاة على الماء والمرعى، فيشترك معهم ساداتهم وأقرباؤهم.

كانت تشتعل الحرب لتنازعهم على شرف أو رياسة، وهم قوم كلفون بالشرف والرياسة، كما حدث بين هاشم وأميّة بمكة، وبين عيسى وذبيان من قيس، وبين بكر وتغلب من ربيعة، وبين دارم ويربوع من تميم (الحوفي، ١٩٧٢م، ص٢٣٠)، وكانت بعض الحروب أيضا رغبة في السلب والغارة؛ لأنَّ أرزاقهم في رماحهم، ومعاشهم في أيدي غيرهم، فنجد تصوير ذلك في أبيات للقطامي، الشاعر المخضرم؛ إذ يتحدث عن الخيل والخيالة وديدنهم في السلب والمغارة:

وكُنَّ اذا أَغَرْنَ عَلى جَنابٍ ... وأَعْوَزهُنَّ كوزٌ حَيْثُ كانا
أَغَرْنَ منَ الضَّبابِ على حَلالٍ ... وَضبَّةَ إنَّهُ مَنْ حانَ حانا
وأحْياناً عَلى بَكْرٍ أخينا ... إذا ما لَمْ نَجِدْ إلّا أَخانا

(الخطيب التبريزي، ١٩٨٣م، ج١، ص٢٥١).

وهنا، يمكن تلخيص البواعث العامة والأسباب الإنسانية لحروب القبائل العربية، أي أيام العرب بالتالي:

- السبب الاقتصادي الذي كان يتعلق بقسوة الطبيعة، حيث أدت قلة المياه وشحة مناطق العشب والمراعي في صحراء جزيرة العرب، إلى التنافس بين القبائل ونشوب الحروب والمعارك فيما بينهم.
- السبب السياسي الذي كان يتمثل في رغبة كل قبيلة في الاستئثار بالسيطرة على غيرها.
- السبب الأجنبي الخارجي، فقد وقفت الدول الكبرى كالفرس والروم في إشعال الحروب بين المناذرة والغساسنة لتحقيق مصالحهم السياسية والاقتصادية في المنطقة.

دون شك أنه هناك أسباب أساسية وفرعية أخرى قامت بين القبائل العربية، كالأخذ بالثأر والدفاع عن الكرامة والشرف، أو الاعتداء على حليف أو ضيف، وغير ذلك من الأسباب المعقولة أو غير المعقولة أو حتى التافهة بعض الأحيان.

٥. أيام العرب: عاداتها وملامحها

لكل أمة وقوم وبلد عادات وتقاليد وخصائص معينة، تختلف من واحدة إلى أخرى، تفرضها البيئة التي عاشت فيها والظروف المحيطة بها. ولا شك أن للأديان والقوميات دوراً مهماً في تكوين عادات وخصائص تلك الأمة.

في العصر الجاهلي، كانت العاطفة الدينية ضعيفة وحتى بعض الأحيان معدومة؛ وفي الوقت نفسه، كان الشعور القومي شديد، والاضطرابات السياسية والاجتماعية والاقتصادية على أشدها. عاش العصر الجاهلي حياة مضطربة خاصة مغلقة في كثير من الأحيان؛ لذلك كان العرب قبل الإسلام يعيشون حياة صعبة مليئة بالمشاكل والوقائع والحروب والأحداث، وما رافقها من حالات ومفاخرات في النسب والشرف والقوة.

كانت غالبية ساحقة من تلك الأيام بمعزل عن القيم الإنسانية والاجتماعية والدينية المتزنة والمعقولة؛ وفي الأثناء تتخللها قيم طيبة معقولة، كالدفاع عن الشرف والعرض والمال والحمى ومناصرة المظلوم وما إلى ذلك، وهي عادات وخصائص قبيلية نابعة من ظروف المنطقة، والعادات المغلقة التي التزمت بها القبائل العربية.

فقد كان العرب في العصر الجاهلي مجتمعاً قبائلياً عشائرياً متمسكاً أشد التمسك بعاداته وخصائصه في البادية أو في الحاضرة، وإن كان البدو أشد تمسكاً من أهل الحاضرة بذلك. فالإنسان في قبيلته العربية عادة ما يتعصب لأسرته على سائر الأسر، وعشيرته على سائر العشائر، وقبيلته على سائر القبائل. وتقتضي هذه العادات والخصائص أموراً تدلّ عليها أمثالهم وقصائدهم الشعرية ونثرهم الأدبي وأحوالهم المعيشية. فكان من أكبر همومهم همّ

القبيلة التي كانوا ينتمون إليها. فكان عندهم الدفاع عن قبيلتهم مقدما على سواه من الهموم والمشاكل. يقول عامر بن الطفيل:

إِنّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ سَيِّدِ عامِرٍ وَفارِسَهاالمَنْدوبَ في كُلِّ مَوْكِبِ
فَما سَوَّدَتْني عامِرٌ عَنْ قَرابَةٍ أَبَى الله أَنْ أَسْمو بِأُمٍّ وَلا أَبِ
وَلَكِنَّني أَحمي حِماها وَأَتَّقي أَذاها وَأَرْمي مَنْ رَماها بِمَنْكِبِ

(ابن حمدون، ١٩٩٦م، ج ٢، ص ٦٧).

وصلب هذه الأيام هو العصبية القبلية، فهي خصيصة خاصة بطبائع العرب. فكانوا عنصريين وكانت نزعتهم عشائرية صارمة، فهي الموالاة بشكل كامل للقبيلة أو العشيرة أو الأسرة، ومناصرتهم لأسرهم، ظالمة كانت أم مظلومة. فالمنتمي للقبيلة كان يتبع قبيلته في الصحيح والخطأ، وكان يؤمن بها في كل أفعالها إيماناً أعمى. فهذا دريد بن الصمة المتوفى مشركاً سنة ٨هـ، يؤكد هذا التعصب بقوله:

وَهَلْ أَنا إِلّا مِنْ غَزِيَّةَ إِنْ غَوَتْ غَوَيتُ وَإِنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشَدِ

(الطبري، ١٩٦٧م، ج ٥، ص ٥٩).

وهذا بالتالي سلوك إنساني سلبي لا يقره العقل ولا الوجدان، ويضفي على القبيلة طابعا قبليا خاصا. فالعصبية عادة تأصلت في القبائل العربية في العصر الجاهلي، وكثيرا ما قامت الحروب القبلية على أساسها. فكان يُقتل المرء لمجرد انتمائه أو انتسابه لقبيلته، في حين أن الدين الإسلامي رفض ذلك وأنكره أشد إنكار، كما نرى ذلك لاحقاً.

فيذكر ابن منظور هذه الخصيصة أو العادة بقوله: «والتعصّب من العصبيّة، والعصبيّة أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته، والتألب معهم على من يناويهم، ظالمين كانوا أو مظلومين» (١٤١٤هـ، ج ١، ص ٦٠٦). ويصفهم ابن خلدون بالقول: «وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم. ولا يصدق دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد؛

لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم؛ إذ نعرة كل أحد على نسبه وعصبيته أهم» (١٩٧٧م، ج ٢، ص ٤٨٣).

ولا شك أن العصبية القبلية جرت عليهم الويلات. يمكن أن نعتبر العصبية هذه العصبية نوعا من الشعور بالتماسك بين من تربطهم رابطة دم نقي. فهي لا تتوافر إلا حيث يوجد المجتمع المغلق والمعزول. فإنها طبيعية فرضتها بيئتهم وأوضاعهم، وهي دائمة وثابتة، يتخللها عنصر أخلاقي يجعلها قوة اجتماعية وسياسية. والخلاصة هي رابطة الدم فيها أقوى وأوضح مما في القومية.

فإذا كان شعار القبائل العربية «انصر أخاك ظالماً أو مظلوما»، فهو معنى جاهلي متطرف بكل ما تحمل هذه الكلمات من معنى. فإذا عرفنا أن من حق المظلوم أن يدافع عن نفسه، فأي حق للظالم المعتدي في الخصومة ....

هكذا كانوا في العصر الجاهلي. فكانت القبائل تغير بعضها على بعض لأغراض متنوعة. فلم يكن لهم قانون منظم مكتوب يستندون إليه، بل كانت لديهم عادات وتقاليد بسيطة واضحة يتمسكون بها أشد تمسك، وتقتصر على العشيرة ولا تتعداه إلى العشائر الأخرى، وهي على بساطتها صلبة جامدة يصعب تغييرها.

ويُذكر أنّ في العصر الجاهلي كان: «العربي عصبي المزاج، سريع الغضب يهيج للشيء التافه، ثم لا يقف هياجه عند حد، وهو أشد هياجاً إذا جرحت كرامته، أو انتهكت حرمة قبيلته، وإذا احتاج أسرع إلى السيف واحتكم إليه، حتى أفنتهم الحروب، وحتى صارت الحرب نظامهم المألوف وحياتهم اليومية المعتادة» (أمين، ١٩٧٥م، ص ٣٧).

وأمّا الذين يعيشون في البادية، فكان: «البدوي يعتز بفرديته وشخصيته، ويرى نفسه مساوياً لغيره من الأفراد في الاصل والحقوق والواجبات، وينفعل إذا حاول أحد مسَّ هذه الفردية أو جرح شعوره بالمساواة، إلا أن فرديته منسجمة مع الجماعية، فهو متماسك مع جماعته بنصر إخوانه ظالمين ومظلومين ويلبي دعوتهم، إذا طلبوا النجدة أو إذا دهم القبيلة خطر

يهددها، بل يرضى عن طيب نفس أن يتحمل بعض مسؤولية أعمال غيره، فيساهم في دفع الدية عنهم، ويشارك في الحروب التي قد تنشب نتيجة سوء تصرف أحد أبناء قبيلته أو نتيجة الاعتداء عليهم» (العلي، ٢٠٠٣م، ص ١٨٨).

فمثل هذه العادات والخصائص والحالات الاجتماعية الصارمة أدت إلى ميزات خاصة في العرب والقبائل العربية في العصر البعيد عن الدين والعقل الذي عاشوا فيه. فكانت الحروب والمعارك والمفاخرات والقصائد الشعرية، والحياة الجاهلية المضطربة تبتعد كثيراً عن العقل والعقلانية.

فإذا ما حدثت معارك أو حروب، فلا بد أن تتبع الوضع الإنساني الجديد (تعاليم الإسلام)، فليست هناك عصبية ولا اعتداد. فإذا حدثت حرب أو معركة، فهي في أساسها دفاعية لردع المعتدي لا أكثر ولا أقل، وهذا بالنسبة لمن يلتزم بالإسلام وتعاليم الدين الإسلامي.

٦. أيام العرب في الإسلام

تعني أيام العرب في الإسلام، الحروب والمعارك التي خاضها الرسول الأكرم (ﷺ)، في أيام الدعوة الإسلامية المجيدة. فهي، وإن اشتركت في أسس الحرب الأساسية بين طرفين مختلفين، إلاّ أنّ لأيام العرب في العصر الجاهلي خصوصيات وعادات جاهلية سلبية في غالبها، ولأيام العرب في الدعوة الإسلامية خصوصيات وعادات إسلامية التزمت بالمبادئ الإسلامية الإلهية العادلة، فليس فيها العصبية والتعصب للقبيلة.

فقد جاء القرآن الكريم ليوضح ذلك: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَشُعوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُم﴾ (الحجرات ٤٩: ١٣). وهناك آيات عديدة تدعو إلى هذه الحالة الإنسانية والابتعاد عن التعصب .... وفي أقوال الرسول (ﷺ)، وخطبه، كثير من الأحاديث التي تؤكد على نبذ التكبر والتعصب والجاهلية. ففي

خطبة فتح مكة، قال (ﷺ): «يا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّ الله قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبيَةَ[١] الجاهِلِيةِ وتَعاظمها بِآبائِها» (الترمذي، ١٩٩٢م، ج ٥، ص ٣٦٣). يعتبر ما ورد في القرآن الكريم وأحاديث الرسول الأكرم (ﷺ)، مادة تربوية وتعاليم إنسانية وأخلاقية عالية، أثرت إلى حد كبير في المجتمع الجاهلي. وبذلك، تحوّل المجتمع من حالة جاهلية إلى حالة إسلامية إيمانية آمنت بالقيم الإنسانية العليا إلى حدٍ كبير.

وهذا ما انعكس على مجمل حياتهم في عصر الرسالة، وخاصة في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية. فلم يعد الإنسان في زمن الرسول يؤمن بالعصبية القبلية الجاهلية، ولا الغزو القائم على القوة والنهب والسلب والقتل دون سبب، وهذا لمن التزم بتعاليم الإسلام ونبي الإسلام.

لقد وصف الرسول (ﷺ)، عصبية القبائل الجاهلية بالنتن. فقد ورد أن حدث خلاف بين رجل أنصاري وآخر من المهاجرين، فسمع ذلك رسول الله (ﷺ)، فقال: «ما بال دعوى جاهلية. قالوا: «يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال (ﷺ): دعوها فإنّها مُنتنة» (البخاري، ٢٠٠٠م، ج ٣، ص ١٥٦٣ وما بعدها، رقم ٤٩٠٥)، بل وتبرأ الرسول الأكرم ممن كان يدعو إلى العصبية ويمارسها، كما كانوا في العصر الجاهلي. فقد ورد أنه (ﷺ) قال: «ليس منّا من دعا إلى عصبيةٍ، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبيةٍ» (السجستاني، ١٩٩٩م، ج ٤، ص ٣٦٨، رقم ٥١٢١).

إن تربية الإسلام بقرآنه ورسوله لا بد أن تكون على أعلى مراتب الخُلق والتنظيم والدقة. فهذا لا يعني أن الإسلام حارب كل القيم الجاهلية الاجتماعية. فهناك قيم إنسانية عالية أقرّها الدين الإسلامي بعد تعديل يوافق النهج الإسلامي. فقاتل المسلمون أعداءهم المتربصين بالقضاء على الدين الإسلامي الجديد؛ ولكن بتعاليم من القرآن الكريم وبأمر من الرسول

---

١. أي نخوتها وكبرها وفخرها.

الأكرم (ص)، لم يأذن لهم بذلك إلا للدفاع عن حمى الإسلام والمسلمين، استناداً إلى ما ورد في القرآن الكريم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (الحج ٢٢: ٣٩ ـ ٤٠)، خلافاً تماماً لأيام ومعارك الجاهلية التي اندلعت لأخذ الثأر أو لعصبيةٍ قوميّة وما إلى ذلك. وهناك آيات عديدة تؤكد ذلك، إلا أنه لا مجال لذكرها.

لقد كان الهدف الأول لأيام العرب زمن الرسول، هو إعمار الأرض وقطع دابر الفساد فيها، وهو حق إنساني أدركه الرسول الأكرم تماماً. فلم يشرع بقتال أعدائه إلا لهدفٍ سامٍ، وبعدما يستنفذ كل الوسائل السليمة الممكنة وآخر الدواء كما يقولون.

فكان (صلى الله عليه وآله)، يستخدم كل الوسائل الشرعية والأخلاقية. ومن أخلاقه، كان يقول: «سيروا باسم الله وبالله وفي سبيل الله، وعلى ملّةِ رسول الله، ولا تغلوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا صبياً، ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً، إلا أن تضطروا إليها» (المجلسي، ١٤٠٣هـ، ج ١٩، ص ١٧٧ ـ ١٧٨).

ومثله الإمام علي (عليه السلام)، فقد حاربه أهل البصرة وضربوا وجهه ووجوه أولاده بالسيوف وشتموه، فلمّا ظفر بهم، رفع السيف عنهم، ونادى مناديه في أقطار العسكر: «ألا يتبع مُوَلٍّ، ولا يجهز على جريح ولا يقتل مستأسر، ومن ألقى سلاحه فهو آمن» (ابن أبي الحديد، ٢٠٠٤م، ج ١، ص ٢٧).

تزخر الشواهد التاريخية بالفارق الشاسع بين نوعين من الأيام، أيام ما قبل الإسلام وأيام ما بعده بقيادة القرآن الكريم والرسول الأكرم ومن سار على نهج القرآن والرسول.

٧. نماذج للأيام في الإسلام

لم يكن مندوحة عن الأيام (المعارك والحروب)، في إبان الدعوة الإسلامية وامتدادها، دفاعاً عن الإيمان بالله والقرآن الكريم والرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله)، ومبادئ الدين الإسلامي بشكل

عام، فلم يكن بد من ذكر حالات الدفاع الضرورية التي واجهت الرسول ودينه العظيم، ضد المتربصين للرسالة الإلهية وقائدها الرسول (ﷺ).

فحين اشتد أذى الكفار والمنافقين وأعداء الإسلام ضد الرسول ورسالته الخالدة، سارع الرسول الأكرم لاتخاذ الإجراءات الضرورية اللازمة، كما سارع لرد المعتدين ورد كيدهم إلى نحورهم. فكانت المعركة الكبرى الأولى، أي يوم بدر، التي وقعت في السنة الثانية للهجرة، أول معركة حدث فيها قتال واسع النطاق بين الرسول وجماعته من المسلمين وبين أبي سفيان وعدد من المنافقين التابعين له المعادين للدعوة الإسلامية، وذلك حين كان قادماً من الشام في تجارة لهم (ابن هشام، ١٩٨٧م، ج ٢، ص ٢١٨).

وفي هذا اليوم وببركةٍ من الله، انتصر المسلمون على أعداء الله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ (آل عمران ٣: ١٢٣). فلو لم تكن قيادة الرسول إلهية وحكيمة، والخطة محكمة، ومعنويات المسلمين عالية، لما انتصروا. فهل كان مثل هذا الهدف الإلهي السامي أو قريباً منه في أيام العصر الجاهلي قبل الاسلام؟ كلا لم يكن، بل كان الهدف خلافه تماماً أطماع وأهواء وثارات واعتداءات وأمور منكرة عديدة.

فيعتبر يوم بدر نموذجا راقيا لأحد أيام المسلمين الكثيرة التي اضطروا لها اضطراراً، مستندين في ذلك إلى إيمانهم العميق بنصر الله ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ (محمد ٤٧: ٧). وأيام الرسول (ﷺ) ضد أعداء الإسلام كثيرة، ولعل من أشهرها: بعد يوم بدر، يوم أحد، ويوم الخندق، ويوم بني المصطلق، ويوم حنين، ويوم مؤتة، ويوم فتح، ويوم تبوك، وأخرى غيرها[١].

وهنا لا بد من القول: إن الحرب بحد ذاتها أمر منكر ومكروه وغير عقلائي وغير إنساني في كل أحوالها، وهي مما تكرهها النفس بنص القرآن الكريم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ (البقرة ٢: ٢١٦)؛ ولكن حينما يضطر إليها الإنسان في حالة دفاعية،

١. وللمزيد من هذه الأيام، يُراجع كتاب أيام العرب في الإسلام، لمحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي.

حتى يدافع عن نفسه وعرضه، وماله، وقيمه الإنسانية، أو لدفع الظلم والكفر والنفاق وما إلى ذلك، ففي مثل هذه الحالات، تصبح ضرورية لازمة لا بد منها، بل واجبة شرعاً وعقلاً ....

ففي أهمية الأيام العرب في الفترة الإسلامية، يمكن القول: لولاها، لما ثبت دين ولا إسلام ولا قرآن؛ ولكن الله في هذه الحالة أمرهم بالقتال وأقره للمسلمين، حتى لو كان كرهاً لهم؛ في حين أنها في العصر الجاهلي كانت مجبولة على الصراع القبلي والمادي والنزاعات المتشددة والغارات الظالمة، أو ما كان يرتبط بثأرٍ أو اعتداء على أتفه الأسباب، إلاّ القليل مما كان دفاعاً عن حقٍ أو مظلوم ... .

وامتدت الأيام إلى ما بعد الرسول (ﷺ)، كيوم الجمل ويوم صفين ويوم النهروان ويوم عاشوراء و...، وهذه كلها أيام دفاعية وليست هجومية .... وهناك أيام ذكرها التاريخ. ففي التاريخ الغث والسمين، ولا سبيل لمعرفة الحقيقة الكاملة؛ ولكن لا بد من التحليل والتأويل وإعمال العقل السليم في فهم ما حصل؛ ومع وجوده النسبي إلا أنّ الغموض لا يفارق الفهم السليم، وهذا ما جبل عليه الإنسان.

٨. بين الهدفين المختلفين

وإذا كانت أهداف أيام العرب في العصر الجاهلي أهدافاً ماديةً ودنيوية قبلية أو فردية أو ثأرية، أو أي شكل من أشكال الخطأ والتعدي على الآخر العربي الذي يشترك فيه الجميع، وإذا كانت أهداف القبائل العربية متنوعة مختلفة، مثل السيادة والأخذ بثأر لفرد أو جماعة أو قبيلة، فإنّ آلية وأهداف الرسول الأكرم كانت صورة إنسانية متكاملة واضحة؛ فمثلاً في معركة بدر، كان الرسول (ﷺ)، كانت مطمئناً من النصر الذي وعده الله به (ابن هشام، ١٩٨٧م، ج٢، ص٢٣٨). كانت أيام العرب في الإسلام وقائع عسكرية واحدة خططها الرسول الأكرم بدقة وبحكمة عالية لا نظير لها. في تعبير آخر، كانت عمليات أيام العرب عند الرسول عملية عسكرية

واحدة، بدأت ببداية الدعوة الإسلامية. من اللافت، أن حسين مؤنس يقول في وحدة أيام العرب في الدعوة الإسلامية:

> ومن الغريب أن مؤرخي السيرة، حتى الذين تخصصوا في المغازي، مثل موسى بن عقبة والواقدي، لم يفطنوا أبداً إلى المنطق الإنساني والسياسي والعسكري الذي سار عليه محمد (ﷺ)، في عمله العسكري، بل إن أعلام المدرستين المصرية والشامية من مؤرخي القرن الخامس عشر الميلادي، وإليهم ينتهي علم التاريخ عند العرب في القرون الوسطى، ولم يفطنوا إلى دراسة المغازي على أنها عملية عسكرية واحدة بدأت بالبعث الصغير الذي قاده حمزة بن عبد المطلب في شوال سنة واحد هجرية المعروف بسرية سيف البحر وانتهت في حياة الرسول بجيش أسامة بن زيد بن حارثة الذي أعده الرسول قبل موته بقليل، معيناً به الاتجاه الذي ينبغي أن تأخذه العمليات العسكرية للتوسع الإسلامي بعده (١٩٧٨م، ص ٧٧).

ثم يفصل ذلك بقوله:

> بدلاً من ذلك، نجدهم يقصون علينا أخبار الغزوات والسرايا والبعوث في صورة عمليات متفرقة لا تبين لنا معظم الأحيان الدوافع إليها ولا الأهداف الكبيرة ورائها. وغاب عنهم أنه ليس من المعقول أن يرسل الرسول سرايا لمجرد العودة بغنائم من الجمال والماشية، وليس من المعقول كذلك أن عملياتٍ متقطعة كهذه يمكن أن تؤدي إلى نتيجةٍ ضخمةٍ، مثل فتح مكة والقضاء على مقاومة المجموعات القبلية الكبرى واحدة بعد واحدة، ثم توحيد شبه الجزيرة والاندفاع خارجها برسالة الإسلام (المصدر نفسه).

وهنا، يمكن القول إنَّ الفارق بعيد جداً بين غزواتٍ مادية عدوانية أرضية دنيوية الهدف، وبين عملية بناء أمّة إسلامية واحدة تدعو إلى شمل شتات القبائل،

وتحرص على هدفٍ كبيرٍ واحد، هو بناء دولة الرسول العالمية. فإنّها لفتةٌ مهمةٌ تدل على حكمة الرسول الأكرم ودقة خطتهِ في إنجاح دعوته الإسلامية وتسلسل أحجار بنائها من البداية حتى النهاية. فلو كانت أحداث ووقائع الأيام متفرّقة متغايرة لم يرتبط بعضها ببعض، لما وصلت إلى المحصلة النهائية التي أرادها الرسول الأكرم من دعوته الإلهية المقدسة. فإنّها عظمة الرسول وعظمة الدعوة الإسلامية الإلهية.

٩. الأدب والشعر المقترن بالأيام

تتصل أيام العرب في العصرين الجاهلي والإسلامي اتصالا وثيقا بالأدب، وخاصة الشعر الذي أنتجته قرائح شعراء العرب المتقاتلين، سواء كانوا في العصر الجاهلي أم في العصر الإسلامي. وبالتأكيد، فإنّ الأدب والشعر المقترن بشعراء العصر الجاهلي كان أدباً وشعراً يمت بصلة قريبة إلى العبثية والعشوائية والظلم والقهر، كالفخر بالقبيلة المنتصرة وهجاء القبيلة المنهزمة والاعتداد بالنفس والاستهزاء بالآخر المغلوب. ولم يكن في الإسلام أبداً هذا النوع الباطل من الأدب والشعر. فإذا كان فخراً أدبياً وشعرياً، فهو فخر بالإيمان بالله وعظمة الرسول والإشادة بإرشادات القرآن الكريم والقيم الإنسانية التي أمر الله بها؛ وإذا كان هجاءً أو ذماً، فهو لأعداء الله أو الإسلام، فهو ذم للباطل والاعتداء والظلم ....

وقد وصلَنا حشد وفير من الأدب والشعر الجاهلي، مما أفرزته أحداث أيام العرب. فقد كانت الأيام عندهم عاملا مهماً، بل وضرورياً في شحذ القرائح وتهييج العواطف وتحريك الدوافع في نفوس الشعراء لقول الشعر. فهم كانوا يقولونه قبل المعركة لإثارة الموتورين وتأليب الرجال ودعوة الحلفاء، وكانوا يقولونه في أثناء

المعارك لتشجيع المنخذلين والخائفين، وكذلك كانوا يقولون الشعر بعد المعركة افتخاراً بالنصر أو امتهاناً بهزيمة الآخر العدو أو رثاء للرجال الذين فجعت بهم القبائل وغيرها.

ولهذا، نجد هذه الكثرة من التراث الأدبي والشعري مرتبطة بأحداث الحروب القبلية. فكان ذلك يزدهر في أيام حروبهم، ويخفت عند خفوت الحروب. كانت نوعية الشعر التي تقال في الأيام رجزاً، بسبب خفّته التي تناسب جو المعارك والحروب، وسهولة نظمه، قياساً لبحور الشعر الأخرى الطويلة. فهي أبيات شعر قصيرة ومؤثرة وسريعة التفاعل في أزمات الحروب. فمن شأنها أن تنشر الحماسة في صفوف الرجال المحاربين. فجو المعركة لا يسمح بالتطويل الذي يشغل الرجال عن حمى القتال.

أما الشعر الذي كانوا يقولونه بعد انتهاء المعارك والحروب، فهو قصائد طويلة في بحورها وأغراضها. كانت تستمد هذه القصائد صورها من مشاهد المدن والحروب والكر والفر والرماح العالية والسيوف المسلولة. فقد قيل هذا الشعر في الحماسة والفخر والرثاء والمدح والهجاء والوعيد والتحذير.

دون شك أن معاني هذه الأشعار كانت تستمد من بيئة القبائل العربية في العصر الجاهلي. وأما في العصر الإسلامي، فكانت تستقى من البيئة الإسلامية الجديدة المفعمة بمعاني القرآن الكريم وأحاديث الرسول الأعظم والجو الإسلامي الإنساني الذي جاءت به الدعوة الإسلامية الحنيفة. ومن أشهر القصائد الجاهلية في الأيام، هي قصيدة عمرو بن كلثوم التغلبي. فهي تدور على الحماسة والفخر بالقبيلة والوعيد، وهي معلقة نظم بعضها قبل مقتل عمر بن هند، ونظم بعضها بعد مقتله بزمن يسير (فروخ، ١٩٨٤م، ص ١٤٣)، وهي:

أَبا هِنْدٍ فَلا تَعَجِّلْ عَلَيْنا وَأَنْظِرْنا نُخَبِّرْكَ اليَقينا

(١٩٢٢م، ص ٧١).

وفي معركة أحد أو يوم أحد، تحدى الشاعر حسان بن ثابت أبا سفيان بن الحارث بقوله:

هَجَوْتَ مُحَمَّداً فَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللهِ في ذاكَ الجَزاءُ
فَإِنَّ أَبي وَوالِدَهُ وَعِرْضي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُم وِقاءُ
أَتَهْجوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ فَشَرُّكُما لِخَيرِكُما الفِداءُ

(ضيف، ١٩٦٠م، ج ٢، ص ٤٨).

١٠. أيام العرب: تحليلها وتعليلها

ومن يقرأ تاريخ العرب في العصر الجاهلي وأدبياته وملابساته على امتداده الطويل حتى العصر الإسلامي بشكل عام أو من يقرأ إحدى ظواهره المثيرة، أي أيام العرب بشكل خاص، فلا بد أن لا يقبله على علاته، ولا بد له أن يحلل ويعلل ليمكن الاقتراب من القراءة الصحيحة أو المعقولة لتاريخ هذه الظاهرة في عهديها الجاهلي والإسلامي.

ونحن نعرف ما ورد هو مادة شفاهية منقولة من سابق إلى لاحق، وليس هناك وقائع ميدانية سجلها أهل زمانها في وثائق أو نقوش سجلت تلك الأحداث في وقتها. فإنّما هي تاريخ إجمالي يكثر في الغث والسمين والمبالغات والأهواء والحب والكره، والناقلون أجيال لاحقة زمانياً للآباء والأجداد والأبعد من ذلك.

وهنا، أقول بكل تأكيد: هل يمكن أن نصدق كل ما ورد، وهل يمكن أن نطمئن بما ورد بعد زمن طويل أو قصير، كيف يمكن الاطمئنان؛ في حين أن الفاصلة بين الحدث الواقعي وخبره المنقول وقت طويل؟

ولا شك أن أغلب الناقلين هم من الأجيال اللاحقة للقبائل العربية السابقة، وأنهم مختلفون في الأهواء والنزعات والحق والباطل. فكل يحاول أن ينتصر أهله وجماعته

وقبيلته ويذكر مساوئ أعدائه ومناوئيه، وهي حالة بشرية لا ينجو منها إنسان إلا ما ندر. ولا شك أيضاً أن أيام العرب في الإسلام قد اختلفت عن أيامهم في الجاهلية. فهي اختلفت بتبدل الظروف والبيئات. فحين كانت البيئة سيئة تنتج أعمالاً وأفكاراً سيئة، وحين تكون البيئة صالحة تكون النتائج صالحة؛ وهكذا وجدنا أيام الإسلام كريمة نزعت إلى الحق وقامت من أجل الحق.

وإذا قبلنا ما ورد من العرب في الجزيرة في العصرين الجاهلي والإسلامي، من معلومات وأخبار إجمالية محدودة، فلا بد أن نتساءل: لماذا كانت الخلافات والوقائع والحروب بين القبائل العربية على أشدها؟ لماذا كانت النزعات القبلية مستمرة، حيث لم تهدأ في مكان إلا وقامت في مكان آخر؟ هنا، لا بد أن نقترب من الجواب الممكن من خلال ظروف تلك الأقوام في العصرين الجاهلي والإسلامي. فحين تكون الظروف الملازمة لتلك البيئة صعبة وفقيرة في كثير من جوانبها المختلفة، فلا بد أن تفرز نتائج مناسبة لتلك البيئة والظروف.

وهنا، يمكن القول: تلك هي طبيعة الجزيرة العربية التي أراد الله أن يعيش فيها العرب. فعاشوا فيها على شكل جماعات قبلية صغيرة، واتبعوا الكلأ والمرعى والماء أينما كانت. فهذا ما جعلهم في عدم الاستقرار، رغم أنه كانت لكل قبيلة أراضيها التي فرضت سلطانها وقوتها عليها، وادعت ملكيتها....

وكان التنازع والقتال والخلاف على الكلأ والماء، سمة غالبة لهذه القبائل المتجاورة في تلك الأراضي في كثير من الأحيان، وخاصة عندما كانت تهطل الأمطار وينبت الكلأ وتنتشر المياه في المكان. فكانت كل قبيلة ترعى حمى الأراضي التي تسقيها الغمائم وتقاتل القبائل الأخرى عنها، وكانت هذه المنازعات والصراعات تنتهي في معظم الاحيان بقتال عنيف بين القبائل المختلفة المنتشرة في شبه جزيرة العرب.

والحقيقة التي لا مراء فيها، أن هذا سبب مهم. ولعله من أهم أسباب النزاعات القبيلية وصراعاتهم المنتشرة في جزيرة العرب؛ ولكن هناك أسباب أخرى تتفرع من هذا السبب وغيره؛ حتى لكأن ولادة التجمعات القبلية الكثيرة اندفاعات عاطفية للدفاع عن انتماءاتها القبلية، والتمسك بالنسب والافتخار بالقبيلة والثأر.

وفي الوقت نفسه، يمكن القول حين تبدّلت الظروف وجاء الإسلام برسوله وقرآنه وتعاليمه، ظهر وضع جديد وظروف جديدة وتضاءلت وانعدمت تلك العادات والعصبيات، حيث قامت أيام من نوع آخر، أي أيام ذات أهداف إنسانية إلهية سامية.

قصارى القول، فلا يسعني إلا أن أقول إن أيام العرب وقائع بشرية توافرت على امتداد التاريخ في حالاتها السلبية أو الإيجابية في حالات الهجوم الباطل أو الدفاع عن الحق. والظاهر أنها طبيعة بشرية منذ قتل قابيل هابيل إلى اليوم. فالهجوم غالباً ما يكون عبثيا باطلا كما في الجاهلية، ويكون الدفاع في الأغلب شرعيا، كما نراه في الإسلام.

الخاتمة

ما توصلت إليها هذه الدراسة من نتائج، يتخلص فيما يلي:

إننا إزاء حالة اجتماعية سلبية فيها كثير من السلبيات والاعتداءات والقاتل والمقتول، والظالم والمظلوم، وإن تخللتها بعض القيم الإنسانية، وإن لم تصلنا كما هي في حقيقتها، بكثيرٍ من الزيادات والنقصان والأهواء والأكاذيب. فإنّها حالة عدوانية حربية ضد السلم الذي دعا إليه القرآن الكريم: «وَادْخُلوا فِي السِّلْمِ كافَّةً»، أو هي الحرب التي لا تبقي ولا تذر، ولا يسلم منها أحد المعتدي والمعتدى عليه؛ فلو كان كبار القوم وعقلاؤهم يملكون ديناً إلهياً حقيقياً أو ضميراً إنسانياً، لما كانت تلك الحروب

والفجائع. وحين حضر الدين الإسلامي الحنيف وحضر قائده الرسول الأعظم والتعاليم القرآنية المجيدة، تغير كل شيء بشكل كامل. فالحروب والوقائع وردّ المعتدي حالة إنسانية بشرية، لكن يمكن تهذيبها وتجذيبها وتأطيرها بالقيم الإنسانية، كما كانت في ديننا الإسلامي الحنيف. وهكذا كانت أيام الإسلام أو غزوات الرسول وسراياه، كانت نقيّة صافية، استمدت تعاليمها وقواعدها من صميم الدين والقرآن الكريم؛ ولذلك لا تجد في حروب الدين الإسلامي ظلماً ولا حيفاً ولا عدواناً، وإنّما هي لخير الأمة الإسلامية خلافاً لأيام العرب قبل الإسلام.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

إبراهيم، محمد أبو الفضل؛ وعلي محمد البجاوي. (٢٠١٤م). أيام العرب في الإسلام. صيدا: المكتبة العصرية.

ابن أبي الحديد. أبو حامد فخر الدين عبد الحميد. (٢٠٠٤م). شرح نهج البلاغة. ط ٢. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

ابن حمدون، أبو المعالي محمد بن حسن. (١٩٩٦م). التذكرة الحمدونية. تحقيق إحسان عباس وآخرون. بيروت: دار صادر.

ابن خلدون، عبد الرحمن أبو زيد بن محمد. (١٩٧٧م). مقدمة ابن خلدون. تحقيق علي عبد الواحد وافي. ط ٣. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد. (١٩٧٢م). وفيات الأعيان.تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر.

ابن عبد ربه الأندلسي، أبو عمرو شهاب الدين أحمد. (١٩٨٣م). العقد الفريد. بيروت: دار الكتاب العربي.

ابن منظور، محمد بن مكرم. (١٤١٤ه). لسان العرب. بيروت: دار صادر.

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك. (١٩٨٧م). السيرة النبوية. تحقيق مصطفى السقا وآخرون. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين. (١٩٩٤م). الأغاني. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

أمين، أحمد. (١٩٧٥م). فجر الإسلام. ط ١١. بيروت: دار الكتاب العربي.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. (٢٠٠٠م). صحيح البخاري. ط ٤. صيدا: المكتبة العصرية.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. (١٩٩٢م). الجامع الصحيح. تحقيق كمال يوسف الحوت. بيروت: دار الفكر.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله. (١٩٦٧م). كشف الظنون عن أسامي الكتب والظنون. ط ٣. طهران: المطبعة الإسلامية.

حسين، طه. (١٩٢٦م). في الشعر الجاهلي. القاهرة: دار الكتب المصرية.

حمودة، عبد الحميد. (٢٠٠٦م). تاريخ العرب قبل الإسلام. القاهرة: الدار الثقافية للنشر.

الحوفي، أحمد محمد. (١٩٧٢م). الحياة العربية من الشعر الجاهلي. بيروت: دار القلم.

الدوري، عبد العزيز. (٢٠٠٥م). نشأة علم التاريخ عند العرب. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر. (١٩٧٩م). أساس البلاغة. تحقيق عبد الرحيم محمود. بيروت: دار المعرفة.

زيدان، جرجي. (١٩٨٢م). تاريخ العرب قبل الإسلام. بيروت: دار الجيل.

السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث. (١٩٩٩م). سنن أبي داوود. تحقيق صدقي محمد جميل. ط ٣. بيروت: دار الفكر.

ضيف، شوقي. (١٩٦٠م). تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي. القاهرة: دار المعارف.

الطبرسي، أبو علي الفضل بن حسن. (١٤١٢هـ). تفسير جوامع الجامع. تحقيق أبو القاسم گرجي. قم: مركز مديريت حوزة علمية قم.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. (١٩٦٧م). تاريخ الأمم والملوك. تحقيق أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار المعارف.

علي، جواد. (١٩٦٠م). المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ط ٣. بغداد: الشريف الرضي.

العلي، صالح. (٢٠٠٣م). تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية. بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع.

عمرو بن كلثوم التغلبي. (١٩٩٢م). الديوان. تحقيق إميل بديع يعقوب. بيروت: دار الكتاب العربي.

الفراهيدي، الخليل بن أحمد. (١٩٨٨م). كتاب العين. تحقيق مهدي المخزومي. بيروت: مؤسسة الأعلمي.

فروخ، عمر. (١٩٨٤م). تاريخ الأدب العربي. بيروت: دار العلم للملايين.

المجلسي، محمد باقر. (١٤٠٣هـ). بحار الأنوار. بيروت: دار الوفاء.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. (١٩٧٣م). مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. ط ٥. بيروت: دار الفكر.

مؤنس، حسين. (١٩٦٨م). «قواعد أساسية سار عليها محمد (ﷺ)». مجلة العربي. ع ١١٠. ص ٧٦. ٨٤.

References

The Quran.

Al-Ali, Saleh. 2003. *Tārīkh al-ʿArab al-qadīm wa-l-biʿthat al-nabawiyya*. Beirut: Shirkat al-Maṭbūʿāt li-l-Tawzīʿ.

ʿAlī, Jawād. 1960. *Al-Mufaṣṣal fī tārīkh al-ʿArab qabl al-Islām*. Baghdad: al-Sharīf al-Raḍī.

Amīn, Aḥmad. 1975. *Fajr al-Islām*. Beirut: Dār al-Kitāb al-ʿArabī.

ʿAmr b. Kulthūm al-Taghlibī. 1992. *Al-Dīwān*. Edited by Imīl Badīʿ Yaʿqūb. Beirut: Dār al-Kitāb al-ʿArabī.

Bukhārī, Abū ʿAbd Allāh Muḥammad b. Ismāʿīl al-. 2000. *Ṣaḥīḥ al-Bukhārī*. Sidon, Lebanon: al-Maktabat al-ʿAṣriyya.

Daif, Shawqi. 1960. *Tārīkh al-adab al-ʿArabī: al-ʿaṣr al-jāhilī*. Cairo: Dār al-Maʿārif.

Dawrī, ʿAbd al-ʿAzīz al-. 2005. *Nashʾa ʿilm al-tārīkh ʿind al-ʿArab*. Beirut: Centre for Arab Unity Studies.

Farāhīdī, al-Khalīl b. Aḥmad al-. 1988. *Kitāb al-ʿayn*. Edited by Mahdī al-Makhzūmī. Beirut: Muʾassasat al-Aʿlamī.

Farrukh, Omar. 1984. *Tārīkh al-adab al-ʿArabī*. Beirut: Dār al-ʿIlm li-l-Malāyīn.

Ḥājī Khalīfa, Muṣṭafā b. ʿAbd Allāh. 1967. *Kashf al-ẓunūn ʿan asāmī al-kutub wa-l-ẓunūn*. Tehran: al-Ṭabʿat al-Islāmiyya.

Ḥamūda, ʿAbd al-Ḥamīd. 2006. *Tārīkh al-ʿArab qabl al-Islām*. Cairo: al-Dār al-Thiqāfiyya li-l-Nashr.

Ḥūfī, Aḥmad Muḥammad al-. 1972. *Al-Ḥayāt al-ʿArabiyya min al-shiʿr al-jāhilī*. Beirut: Dār al-Qalam.

Ḥusayn, Ṭāhā. 1926. *Fī al-shiʿr al-jāhilī*. Cairo: Dār al-Kutub al-Miṣriyya.

Ibn ʿAbd Rabbih al-Andulusī, Abū ʿAmr Shahāb al-Dīn Aḥmad. 1983. *Al-ʿIqd al-farīd*. Beirut: Dār al-Kitāb al-ʿArabī.

Ibn Abī al-Ḥadīd, Abū Ḥāmid Fakhr al-Dīn ʿAbd al-Ḥamīd. 2004. *Sharḥ nahj al-balāgha*. Beirut: Muʾassasat al-Aʿlamī li-l-Maṭbūʿāt.

Ibn Ḥamdūn, Abū al-Maʿālī Muḥammad b. al-Ḥasan. 1996. *Al-Tadhkirat al-Ḥamdūniyya*. Edited by Ehsan Abbas et al. Beirut: Dār Ṣādir.

Ibn Hishām, Abū Muḥammad ʿAbd al-Malik. 1987. *Al-Sīrat al-nabawiyya*. Edited by Muṣṭafā al-Saqqā, et al. Beirut: Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī.

Ibn Khaldūn, ʿAbd al-Raḥmān Abū Zayd b. Muḥammad. 1977. *Muqaddama Ibn Khaldūn*. Edited by ʿAlī ʿAbd al-Wāḥid Wāfī. Cairo: Dār Naḥḍa Miṣr li-l-Ṭabʿ wa-l-Nashr.

Ibn Khallikān, Abū al-ʿAbbās Aḥmad b. Muḥammad. 1972. *Wafiyyāt al-aʿyān*. Edited by Ehsan Abbas. Beirut: Dār Ṣādir.

Ibn Manẓūr, Muḥammad b. Mukarram. 1414 AH. *Lisān al-ʿArab*. Beirut: Dār Ṣādir.

Ibrāhīm Muḥammad Abū al-Faḍl and ʿAli Muḥammad al-Bajāwī. 2014. *Ayyām al-ʿArab fī al-Islām*. Sidon, Lebanon: al-Maktabat al-ʿAṣriyya.

Iṣfahānī, Abū al-Faraj ʿAlī b. al-Ḥusayn al-. 1994. *Al-Aghānī*. Beirut: Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī.

Majlisī, Muḥammad Bāqir al-. 1403 AH. *Biḥār al-anwār*. Beirut: Dār al-Wafāʾ.

Masʿūdī, Abū al-Ḥasan ʿAlī b. al-Ḥusayn al-. 1973. *Murūj al-dhahab wa-maʿādin al-jawhar*. Edited by Muḥammad Muḥyī al-Dīn ʿAbd al-Ḥamīd. Beirut: Dār al-Fikr.

Muʾnis, al-Ḥusayn. 1968. "Qawāʿid asāsiyya sār ʿalayhā Muḥammad." *Majallat al-ʿArabī*, no. 110: 76-84.

Sijistānī, Abū Dāwūd Sulaymān b. al-Ashʿāth. 1999. *Sunan Abī Dāwūd*. Edited by Ṣidqī Muḥammad Jamīl. Beirut: Dār al-Fikr.

Ṭabarī, Abū Jaʿfar Muḥammad b. Jarīr. 1967. *Tārīkh al-umam wa-l-mulūk*. Edited by Abū al-Faḍl Ibrāhīm. Cairo: Dār al-Maʿārif.

Ṭabarsī, Abū ʿAlī al-Faḍl b. al-Ḥasan al-. 1412 AH. *Tafsīr jawāmiʿ al-jāmiʿ*. Edited by Abolghasem Gorji. Qom: Managerial Center of the Seminary of Qom.

Tirmidhī, Abū ʿĪsā Muḥammad b. ʿĪsā. 1992. *Al-Jāmiʿ al-ṣaḥīḥ*. Edited by Kamāl Yūsuf al-Ḥūt. Beirut: Dār al-Fikr.

Zamakhsharī, Abū al-Qāsim Jār Allāh Maḥmūd b. ʿUmar al-. 1979. *Asās al-balāgha*. Edited by ʿAbd al-Raḥīm Maḥmūd. Beirut: Dār al-Maʿrifa.

Zaydan, Jurji. 1982. *Tārīkh al-ʿArab qabl al-Islām*. Beirut: Dār al-Jayl.